أبو منصور الماتريدي

حياته وآراؤه العقدية

تمّ طبع هذا الكتاب
بالمطابع الموحدة
تونس
في جويلية 1989
الإيداع القانوني 89/55
الثلاثة أشهر الثالثة 1989

بلقاسم الغالي

أبو منصور الماتريدي

حياته وآراؤه العقدية

دار الذكر للنشر

© جميع الحقوق محفوظة لدار التركي للنشر ـ 1989 ـ
ISBN 9973 — 715 — 07 — 1

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

اَلْمَاتُرِيدِيُّ أحد أيمة أهل السنة وحامي حماها وعلم من أعلام الفكر الاسلامي، وقد كان من الفطاحل الذين زانوا أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري. وذلك عندما نقم جمهور المسلمين على المعتزلة بسبب نزعتها المغالية وإنكارها لمسائل عقدية واضحة كرؤية الباري سبحانه وتعالى، وإفراطها في التأويل وردّها لأحاديث صحيحة، واعتمادها على السُّلطة لفرض آرائها بالقوّة في محنة خلق القرآن. وفي ذلك العصر لم تظهر بين أهل السنة بعد أحمد بن حنبل شخصية علمية قوية يكون لها القول الفصل فيما أشْكِلَ من مثل هذه المسائل. إذْ سرت بينهم نزعةُ التصلب، وحاولَ بعضهم حمل آيات التشبيه على حقيقتها.

لذلك كان الاسلام يومئذ في حاجة ملحّةٍ الى ظهور شخصية تاخذ بالسمع والعقل، ووجدت هذه الشخصية المطلوبة في شخص أبي منصور الماتريدي. فكان « عَلَمُ الْهدَى » متكلّما بارعا، وأصوليا ماهرا، وفقيها حرّا، لا يقل شأنا عن أبي الحسن الأشعري الذي ظهر في هذا العصر بالذات. وقد وجدت آراء ابي منصور صدًى لدى الحنفية، فكانت العقيدة الرسمية على مدى عشرة قرون ولا تزال تَسُودُ جزءا كبيرا من العالم الاسلامي حتى الآن.

ورغم هذه الأهّمية فإنّ الماتريدي لم يحظَ بما يستحقه من العناية كمُؤسِّسٍ لمدرسة من مدارس أهل السنة وكرائدٍ روحيٍّ للملايين من المسلمين اليوم، بل لم تصدر - فيما

علمنا ـ دراسة مستقلة باللغة العربية عن حياته، ومصادر ثقافته، وما أسْهَمَ فيه بفكره العبقري وذكائه النّادر في حل المعضلات العقدية الدقيقة.

وقد قُمت في هذه الرسالة بالكشف عن حياته، ومنابع ثقافته، ودراسة أهم آرائه الكلاميّة، رغم وُعُورة المسالك اليه، والعقبات الكأداء الحائلة دون البحث فيه، والصعوبات الجمَّة التي كادت تثنيني عنه، كندرة المصادر الحنفية، وعُسْر الحصول عليها، وصعوبه قراءة المطبوع منها والمخطوط خاصة، لتقادم العهد عليها، ولأنّ المطبوع منها لم يحظ بطباعة علميّة موثقة، الأمر الذي يسهّل على الباحث الرجوع إليها والإفادة منها في يسر.

وأمّا سبيلي في هذا البحث، فقد عرضت آراء الماتريدي عرضا مفصلا، وشرحتها شرحا طويلا مسهبا، مع دعم ذلك بأدلته العقلية والنقلية. وقد حاولت البحث عن نشأةِ المشكلةِ العقديّةِ، والدوافع التي دفعته الى الخوض فيها، مع مراعاة التطور التاريخي لها. وقد صرفت اهتمامي للبحث عن أصول أفكاره، كما عُنِيتُ بالكشفِ عن العوامل المؤثرة فيها إسلامية كانت أم أجنبية في غير تمحُّلٍ، سالكا في ذلك منهجا مقارنا بين شتى الفرق الاسلامية خاصة مع الأشاعرة والمعتزلة.

وقد اقتضت خطّة البحث أن يكون تقسيمُ هذه الرسالة الى ثلاثةِ أبواب وخاتمة.

وقد جاء البابُ الأوّل في فصلين:

عالج الفصلُ الأوّل منه عصرَ الماتريدي والحياة السياسية. والاقتصادية والتيّارات الفكرية الداخلية والخارجية يومئذٍ. ثم تطرّق الى ترجمةِ الماتريدي وتلاميذه.

وقد عقدتُ الفصل الثاني لِثَقافته ومَصَادرها، وَخَصائصها وإنتاجه الفكريِّ في شتى العلومِ الشرعية، وأوْردت نماذجَ منها لتكشِف عن بعض خُصوصيّاتِ هذا المفكر، ولِتظهر مدى إسْهامِه في إثْراء الثقافة الإسلامية.

وأما الباب الثاني فعنوانه « الله » وهو مؤلف أيضا في فصلين، تناول الفصل الأوّل الأسباب التي دفعت به الى الخوض في مبحث الالوهية، وما كانت تعجُّ به منطقة « ما وراء النهر » من ديانات وآراء فلسفية، لها تصورات تخالف المفهوم الإسلامي كانت شائعة في تلك الربوع، لذلك افاض الماتريدي القول في هذا المبحث

بما إبتكره من أدلّة على وجوده سبحانه وتعالى. فبسطتُ القول في ذلك، وأشرتُ إلى منهجه فيها.

ويدور الفصل الثاني حول صفات الله عز وجل، وما حدث فيها من تشبيه وتعطيل، وموقف أبي منصور من هذه التيّارات. ثم اقتصرت على بحث نماذج من هذه الصفات التي تحتلُّ منزلة خاصة في الفكر الماتريدي. فتعرّضتُ في الصفات السلبية الى الوحدانية وفي صفات المعاني الى العلم والكلام، وفي صفات الأفعال الى التكوين. وهي من اشهر الخصوصيّاتِ التي تميّز الماتريدي بإضافتها الى الله سبحانه وتعالى.

وختمتُ الفصلَ بالصفاتِ الخبريةِ.

واما الباب الثالث فكان بعنوان « الإنسان » وقد تضمّن ثلاثة فصول. بحث الفصلُ الأوّل موضوعَ النبوّة وحاجةِ البشر إليها، وأدلّة إثباتِها، ونبوّة محمد صلى الله عليه وسلم، ومعجزاتِهِ المتنوعة التي تُلْجمُ الملاحدة وتَدْحَضُ اِفْتراءَاتِهم.

واما الفصل الثاني فقد خصّصتُه للجبرِ والاختيار، ومنشأ البحثِ في هذه القضيّة، واخْتلاف الأنظار حولها، وموقف الماتريدي من هذه الاتّجاهات المتَبَاينة، والحل الذي ارتآه لهذه المعضلة الفكرية وما احدثه من أثر. وانتهى الفصل بموضوع القضاءِ والقدر تلك المشكلة التي أحدثت حيرة في الفكر الاسلامي ولا تزال.

وأبرز الفصلُ الثالث من هذا الباب موقفَ الماتريدي من الايمان، ونَشأة البحث فيه، والفرق بين الايمان والاسلام، وزيادته ونقصانه، وعلاقته بالعمل، وحكم الاستثناء فيه والتقليد، وصلة هذا المبحث العقديّ بالصراع السياسي والاجتماعي.

وتركزت خاتمة هذا البحث حول أهّم النتائج التي يمكن استخلاصها من فكر الماتريدي، ومكانته في الفكر السني، والأثر الذي أحدثهُ كرائد روحي من روّاد مدرسة فكرية لها خصائصُها ومميّزاتُها.

ولعل هذا البحث قد كشف النّقاب عن بعض محاسن مفكر عبقريّ، مهضوم مظلوم، لم يتطلّع الى آفاقه إلا نفر قلائل بالرغم من أن آراءه كانت الانطلاقة العظمى للفكر السنّي في عطائه الخصب.

والله أسأل أن ينفع بهذا التأليف كل راغب في العلم مستضيء بهديه كما أسأله جلّ وعلا ان يوفقنا إلى ما فيه رفعةٌ لأمجادنا وبعثٌ لنهضتنا إنه خيرُ مسؤول وأفضلُ مأمُولٍ.

نقد المصادر والمراجع

إهمال المصادر للماتُريدِي:

يحتل الماتريدي أهمية كبيرة في الفكر الاسلامي، فهو مؤسّس الفرع الثاني لعلم الكلام السني. يقول طاش كبري زادة في هذا المعنى: «اعلم أن رئيس أهل السنة والجماعة في علم الكلام رجلان: أحدهما حنفي، والآخر شافعي، أما الحنفي فهو أبو منصور الماتريدي وأمّا الشافعي فهو ابو الحسن الاشعري» (1).

ولقد حظي الفكر الأشعري باهتمام القدامى والمحدثين، فكتب ابن عساكر (ابو القاسم على بن الحسن بن هبة الله الدمشقي (تـ 571 هـ) في القرن السادس كتاب «تبيين كذب المفتري فيما نُسِبَ إلى الامام أبي الحسن الأشعري» (2)، وترجم له مختلف كتب طبقات الشافعية، والمالكية، والحنفية. وذكرته كتب التاريخ، وكتب حوله المحدثون كحمودة غرابة (3) وجلال موسى (4).

---

1) مفتاح السعادة: ج 2 ص 151 ـ 152.
2) دمشق مطبعة التوفيق 1347 هـ.
3) حمودة غرابة: الاشعري، طبعة 1، مصر 1953.
4) نشأة الاشعرية وتطورها: طبعة دار الكتاب اللبناني، بيروت 1975.

واهتم به المستشرقون منذ القرن الثامن عشر، (5) ونشرت كتبه كـ «مقالات الاسلاميين» و«الإبانة» و«اللّمع» في طبعات مختلفة. بينما لم تنشر كتب الماتريدي إلاّ في السبعينات (6).

وقد تحدث ابن النديم عن شيخ السنة في مصر أبي جعفر الطّحَاوي (7) بينما لم يشر إلى الماتريدي، بالرغم من أنهما قد عاشا في عصر واحد. وأهمله البغدادي في كتابيه «الفـرقُ بين الفِـرقِ» و«أصـول الـدين» (8). كما أغفله ابن خلكـان في «وفيات الأعيان» (9) والصّفـدي في «الـوافي بالـوفيات» (10) وتحـدث ابن الأثـير عن ماتُريد (11) مواطن أبي منصور ولم يترجم الى أفضل علمائها، واهتم ابن كثير بالكعبي المعتزلي (12) ولم يتحدث عن معاصرة من أهل السنة، ممن كرّس جهدا لمناقشته والردّ عليه كأبي منصور. وأطنب ابنُ العماد في حديثه عن الدولة السّامانية (13) ولكنه أهمل الماتريدي الذي يُعَدّ من أبرز مفكريها. وناقش ابن حزم الأشعري في الكسب، وعده جبريا وأغفـل المـاتريدي (14) وكذلك فعل ابن خلدون في الفصل الذي عقده في المقدمة لنشأة علم الكلام وتطوره. (15)

وحَذَا حِذوهم السّيوطي في «طبقات المفسرين» بالرغم من ان أبا منصور معدود من أكبر الّذين برعوا في علم التفسير.

كما أهملته كتب الكلام. ومرّت كتب الأحناف عليه مرورا عابرا، ومما ساهم في هذا الاغفال أيضا ضياع كتب ترجمت لرِجالِ ما وراء النهر، ككتاب «القندِ في رجال سمرقند».

---

5) Spitta : Abu - al-Hassen - al-AShari, leipsig, 1876.

6) ابـو منصور الماتريدي : كتاب التوحيد، تحقيق د. فتح خليف، المطبعة الكاثوليكية بيروت، 1970، ثم كتاب تأويلات اهل السنة للماتريدي، تحقيق ابراهيم عوضين والسيد عوضين، طبعة القاهرة · 1971.

7) ابن النديم · الفهرست ص 292.

8) البغدادي . الفرق بين الفرق، وكتابْ اصول الدين. طبعة 2، بيروت 1980.

9) ابن خلكان : وفيات الاعيان، القاهرة، المطبعة الميمنية : 1310 هـ.

10) الصفدي : الوافي بالوفيات، حققه ريتر، طبعة استنبول ودمشق 1933 ـ 1959.

11) ابن الاثير الجزري : اللباب في تهذيب الانساب، ص 140، ج 3، دار صادر بيروت.

12) ابن كثير : البداية والنهاية، ص 164. ج 11 طبعة 1 مكتبة المعارف، بيروت، 1966.

13) ابن العماد : شذرات الذهب، ج 1 ص 331، طبعة بيروت.

14) ابن حزم : الفصل ج 3، ص 22، طبعة القاهرة، 1928.

15) ابن خلدون : المقدمة، ص 458، طبعة بيروت.

وهكذا يتضح ان أبا منصور الماتريدي لم يلقَ من الاهتمام ما لقيه أبو الحسن الاشعري بل لقد أهمل إهمالا غير لائق على حد تعبير عبد الرحمان بدوي (16). لذلك لم يدرس دراسة مستقلة حتى الآن، بالرغم من ان المدرسة الماتريدية تمتدّ جذورها الى أبي حنيفة واضع اللبنات الاولى لهذه العقيدة السنّية التي انتصر لها كثير من الأعلام، كالكمال بن الهمام والبزدوي والنسفي، وقد سادت في الأقاليم الشرقية، وفي آسيا الوسطى لدى اتباع المذهب الحنفي، بينما انتشر المذهب الاشعري في الأقاليم المتوسطة، كالشام ومصر ثم في بلاد المغرب العربي لدى أتباع الشافعية، والمالكية. يقول ابن عساكر «فالمالكية كافة، وثلاثة أرباع الشافعية، وثلث الحنفية، وقسم من الحنابلة، على الطريقة الأشعرية. والثلثان من الحنفية على الطريقة الماتريدية في ديار ما وراء النهر، وبلاد الترك والأفغان والهند والصين وما ولاها» (17)

مصادر ومراجع اهتمت بعصره:

ورغم هذا الانتشار العريض، فإن هذا الفرع من فروع أهل السنة لم يحظ بالدراسة والتحليل، قدر ما حظيت به الاشعرية واعلامها. وهكذا يبدو أن المعلومات حول حياة الماتريدي، وزعماء مدرسته نادرة، والمصادر قليلة، والموضوع لم يطرق بشكل أو بآخر. فلم يبق الا التعويل على الاستنتاج، لذلك عمدت في عصر ابي منصور الى الاعتماد على كتب الجغرافيا الوصفية، وأقدم هذه المصنفات «المسالك والممالك» للإصطخري (أبو إسحاق إبراهيم بن محمد) وهو مواطن فارسي، عاصر الماتريدي، وزار منطقة آسيا الوسطى، وعاصمتها سمرقند، ولفت انتباه عناية المسلمين بالثغور والرُّبُطِ، وحماسهم لنصرة دينهم، والذّود عنه (18).

وأما كتاب «صورة الارض» لابن حوقل (أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي) فقد أفدت منه عند وصفه للحياة السياسية في زمن أبي منصور (19)، والكتاب الذي صوّر سمرقند ومدنها أحسن تصوير في القرن الرابع الهجري هو كتاب «أحسن

16) عبد الرحمان بدوي : التراث اليوناني، ص 317.
17) ابن عساكر : تبيين كذب المفتري، ص 16
18) الاصطخري : المسالك والممالك، ص 290.
19) ابن حوقل : صورة الارض، ص 345.

التقاسيم في معرفة الأقاليم» للمقدسي (شمس الدين أبوعبد الله محمد بن أحمد) فقد تحدّث عن الحياة الفكرية، والسياسية في هذه الربوع مما يلقي مزيدا من الأضواء على الظروف التي حفّت بحياة الماتريدي (20).

كما وصف ياقوت في «معجم البلدان» ثراء «ما وراء النهر» وازدهارها، وفصل الحديث عن الحياة الفكريّة فيها كسهولة استعارة الكتب من مكتباتها وغير ذلك مما يعود عليها بالازدهار الفكري والتّقدم الحضاري في شتى الفنون (21).

وأمّا الحياة الاقتصادية والاجتماعية في القرن الرابع الهجري، فقد اعتمدت فيها على كتاب «الحضارة الاسلامية» لآدم متز (22)، و«تراث الاسلام» وهو بحث في تاريخ نشر العقيدة الاسلامية في بلاد «ما وراء النهر»، (23) والصعوبات التي حفّتْ بالفاتحين. كما أفدت من بحث نشر بنفس العنوان «تراث الاسلام» لجوزيف شاخت و س. أ. بوزورث (24) وقد تضمّن فصولا حول مظاهر التاريخ السياسي والاقتصادي والثقافي وحول الفن الاسلامي والعمارة وحول الطب الاسلامي والعلوم والموسيقى، هذا فضلا عن بعض المراجع العربية ككتاب «الاسلام والحضارة في آسيا الوسطى» (25).

وقد انصرفت عناية هذه الكتب الى أهمية آسيا الوسطى عامة، وسمرقند خاصة، وكيف كانت مركزا تجاريا هاما ومعبرا لكثير من البضائع الموجهة الى مركز الخلافة، كالرقيق والحرير والمسك والخشب...

وهذا النشاط وإن بَدا بعيد الصلة لِلْوَهْلَةِ الأولى، إلّا إنّه يبرز ناحية هامة زمن الماتريدي ويوضّح ما بلغه المسلمون في تلك الاصقاع من تقدّم اقتصادي له أبلغ الأثر على مجالات الحياة المختلفة.

---

20) المقدسي : احسن التقاسيم، ص 294 وما بعدها.
21) ياقوت الحموي : معجم البلدان، مادة ما (وراء النهر) ومادة (مرو) ج 5 ص 45 و112.
22) آدم متز : الحضارة الاسلامية، ج 2 ص 280.
23) توماس ارنولد : تراث الاسلام، ص 185.
24) تراث الاسلام : ص 180 (مجلة عالم المعرفة 1978 عدد 8).
25 د. حسن احمد محمود : الاسلام والحضارة في آسيا الوسطى.

مصادر حياة الماتريدي ومراجعها :

وأما حياة الماتريدي فقد اعتمدت فيها على كتب الطبقات، واقدم هذه المصادر كتاب «الانساب للسمعاني» (أبوسعد عبدالكريم بن محمد السمعاني ت 562 هـ) الـذي أهمـل المـاتريدي، وإن ذكر قريته ماترید، ولّمح الى أنه تخرج منها جماعة من الفضلاء والعلماء (26)، ومن الغريب انه عندما ذكر بزدوة (27) ترجم للبزدوي، بينما اغفل عندما ذكر ماتُريد أبا منصور الماتريدي.

ويعتـبر كتـاب «الجـواهـر المضيئة» في طبقات الحنفية لمحيي الدين أبي محمد عبد القادر بن أبي الوفاء القرشي (ت 775 هـ) أوّل الكتب المصنفة في طبقات الحنفية. وقد استطرد في الثّناء على أبي نصر العِيّاضي عند ترجمته للماتريدي وهو أحد شيوخه، فأضَاع بذلك الأصل. ورغم ما في هذه الترجمة من إيجاز، واستِطراد فهي تُعد من أهم المصادر عن حياة الماتريدي. فقد نقل عنها حاجي خليفة وغيره. (28) وفي كتاب تاج التراجم في طبقات الحنفية لأبي العدل زين الدين قاسم بن قطلوبغا (ت 879 هـ) حديث عن مؤلفات الماتريدي، وإهمال لذكر حياته، إذ لم يذكر من شيوخه عدا أبي نصر العِيّاضي (29) هذا فضلا عن إغفاله لذكر التلاميذ الذين تلقّوْا عن أبي منصور، وكتاب ابن قطلوبغا تكملة «للخطط المقريزية» يشتمل على 286 ترجمة. ولكن التكملة لم تضف جديدا، فما عند المقريزي قد ردده تلميذه ابن قطلوبغا في هذه الترجمة بالذات (30).

وقد ترجم أبو الحسنات محمد بن عبد الحي اللّكْنوي الهندي (ت 1304 هـ) في كتابه «الفوائد البهيّة» لعلماء الاحناف وذلك سنة 1293 هـ زمن فراغه من تأليف كتابه.

وقد اعتمد في هذه التراجم على كتاب الأنساب للسمعاني إذ يقول عند ترجمته لمحمـد السمعـاني: «وهـو جد لأبي سعـد عبـد الكـريم السمعـاني صاحب كتاب

---

26) السمعاني : الانساب، ص 498، طبعة مرغليوث، ليدن 1912.
27) المصدر السابق : ج 1 ص 201، طبعة الهند : 1962.
28) ابن ابي الوفاء القرشي : الجواهر المضيئة، ج 2 ص 130 ـ 131 وانظر : حاجي خليفته: كشف الظنون، ج 1 ص 335.
29) ابن قطلوبغا : تاج التراجم، ص 59، ترجمة عدد 173، مطبعة العاني بغداد، 1962.
30) المقريزي : الخطط، ج 2 ص 359.

«الانساب» الذي ننقل عنه كثيرا في كتابنا هذا» (31) كما أنّ ابن قطلوبغا وابن ابي الوفاء القرشي يعتبران من اهم مصادره في كتابيهما «تاج التراجم»، و«الجواهر المضيئة» وقد تعرض اللكنوي الى أبي منصور الماتريدي، وترجم لشيوخه وتلاميذه وعدّد مصنفاته.

ولعل أهم ما امتاز به هو ذكره للذين تفقّهوا عليه، وأخذوا العلم عنه. (32) وقد عدّ ابن كمال باشا في «طبقات الحنفيّة» أبا منصور الماتريدي في الطبقة الرابعة من بين علماء الحنفية، ولم يضف جديدا الى ما ذكره من سبقه عدا التاريخ الغريب الذي أورده لوفاته سنة 336 هـ، وهو تاريخ قد تفرّد به من بين سائر المصادر والمراجع التي تحدثت عن حياة أبي منصور (33). ولم يتعرض السبكي الى حياة الماتريدي في «طبقات الشافعية الكبرى»، ولكن كتابه هذا يحتل أهمية بالغة لأن مؤلفه قد نظّم قصيدة في الاختلاف بين الاشاعرة والماتريدية مطلعها: (34)

[الكـامـل]

الورد خدك صيغ من إنسان * أم في الخدود شقائق النعمان

وقد ولع كثير من الناس بحفظها لا سيما الحنفية، وقد شرحها العياشي في «رحلته». كما اشتهر بشرحها نور الدين محمد بن الطيب الشيرازي في كتاب لا يزال مخطوطا (35). وهناك كتاب قد صدر حديثا بعنوان «الفتح المبين في طبقات الاصوليين» تأليف عبد الله مصطفى المراغي ترجم فيه صاحبه للأصوليين وتعرض الى أبي منصور، فسَرَد حياته دون أن يضيف جديدا إليها بل اكتفى بما أورده سابقوه ممن تحدثنا عنهم من أصحاب كتب الطبقات (36).

وقد حاول محمد بن الحسيني الزبيدي الشهير بمرتضى في سنة 1197 هـ أن يقدم صورة مجملة لحياة أبي منصور وشيوخه وتلاميذه، في مقدمة شرحه «لإحياء علوم الدين» لأبي حامد الغزالي الذي اختار له عنوان: «اتحاف السادة المتقين بشرح أسرار

31) عبد الحيّ اللكنوي: الفوائد البهية، ص 173، طبعة دار المعرفة، لبنان.
32) المصدر السابق ص 195 و44.
33) ابن كمال باشا: طبقات الحنفية، ص 130، مخطوط بالمكتبة الوطنية بتونس عدد 17976.
34) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج 2 ص 262.
35) نور الدين محمد بن ابي الطيب الشيرازي: في الاختلاف بين الاشاعرة والماتريدية مخطوط بالمكتبة الوطنية بتونس عدد 9197.
36) عبد الله مصطفى المراغي: الفتح المبين في طبقات الاصوليين، ص 182 طبعة ثانية، لبنان 1974.

علوم الدين»، ويعد هذا الكتاب من أوفى المصادر عن أهل السنة بفروعها المختلفة الذي أوْرد تفصيلا عن هذا المذهب ثم ردّ على المخالفين من المعتزلة والشيعة بأدلة عقلية ونقلية في وضوح وتبويب.

وقد صدّر كتابه بحياة الأشعري، ثم تَلاَهُ بحياة الماتريدي، ثم فصّل حياة شيوخه وتلاميذه، ثم ذكر نقاط الاختلاف بين الاشعرية والماتريدية، لذلك يعد من أهم من تناول بالبحث حياة أبي منصور الماتريدي من (ص 5 إلى ص 14). وقد اعتمده جُلّ الباحثين المحدثين في مقالاتهم العلمية (37)، ولعلّ سبب إحاطته بالموضوع يعود الى تأخره في الزمان واعتماده خاصة على «العقائد النفسية»، و«المسايرة»، و«نظم الفرائد» و«جمع الفوائد»، و«اشارات المرام من عبارات الإمام» وغير هذه الكتب كثير كما صرح بذلك في كتابه (38).

مصادر آراء الماتريدي:

وأمّا آراء الماتريدي فتوجد في مصدرين أساسيين، هما من مؤلفات أبي منصور نفسه. ومن الطبيعي أن يهتم الباحث في شؤون الماتريدي «بكتاب التوحيد»، فهو المصدر الأساسي الذي يتبوأ المنزلة الأولى في هذا الشأن، لذلك عوّلت عليه في مختلف الآراء، وانطلقتُ منه وانتهيتُ إليه. وقد احتوى كتاب التوحيد على أهمّ المسائل العَقَدية، في أسلوب تأليفي بعيد عن المناظرة والجدل. ومن أهم القضايا التي تناولها نفْيُ قِدَم العَالَم، والتدليل على حدوثه، والبرهنة على وجود الله. وصفاته سبحانه، وأفعال الخلق والايمان. ثم أورد أقاويل الثنوية وناقشها. وهكذا فإن هذا الكتاب يُعدُّ وثيقة نادرة تبرز تطوّر الفكر السّني في مواجهة التيّارات الداخلية والخارجية الوَافدة.

وقد قدّم له بمقدمة جيّدة ضافية، وحقق نصه الدكتور فتح الله خليف سنة 1970 عن نسخة وحيدة عثر عليها في مكتبة جامعة كمبريدج (39) وقد أفدت من هذه المقدمة التي انارت سبيلي في هذا البحث إلاّ أن تحقيقه رغم جودته لم يخل من

---

37) بروكلمان : تاريخ الادب العربي ج 4 ص 42، وانظر ايضا : لويس غرديه : فلسفة الفكر الديني، ج 1 ص 106 و107.

38) محمد مرتضى الزبيدي : اتحاف السادة المتقين بشرح اسرار علوم الدين ج 2، ص 5 الى ص 14، طبعة مصر : 1311 هـ.

39) الماتريدي : كتاب التوحيد، تحقيق د. فتح الله خليف، طبعة لبنان 1970.

مآخذ، فقد أغفل تأصيل آراء هذا المفكر وإرجاعها الى مصادرها، وموازنتها بغيرها من آراء الأشاعرة والماتريدية، وكيفية تطوّرها. وقد كان هذا ملْحَظًا لبعض الباحثين، إذ يقـول عبـد الأمـير الأعسم : «وبداية كنت حسن الظن باخراج الكتاب من حيث الشكل والاعداد لكني بمقارنة النص المتعلق بابن الريوندي وفق قراءتي للمخطوط على ما هو مُثْبَتٌ في المطبوع وفق قراءة الدكتور خليف، وجدت من العسير الاعتماد عليه، فلم يوفّق للأسف في حلّ رموز المخطوط الذي أهمل ناسخه التنقيط والتّحْريك وما الى ذلك إضافة الى اللغة الركيكة التي تناثرت في أنحاء الكتاب» (40).

وبصرفِ النـظر عن درجة تحقيق المخطوط، فان الأمر الذي لا شك فيه أن «كتاب الوحيد» لايزال بحاجة الى دراسات عميقة لتبرز آراء هذا المفكر السني حتى تأخذ مكانتها اللائقة بها في الفكر الاسلامي.

واما الكتاب الثاني البالغ الأهمية فهو تفسير الماتريدي المسمى «بتأويلات اهل السنة» (41) وهذا الكتاب يطلعنا بوضوح على شرح مراد الله سبحانه من وجهة نظر سنية، وهو يعتمد على العقل والنقل في تفسيره. ولعلّه أول من سار هذا المسار من أهّل السنة، فهو يردّ على من لا يتّفق معهم من المعتزلة والمجسّمة والمشبّهة والحشويّة وغيرهـم ويقـرّر العقيدة السنية اثنـاء تفسـيره بالادلـة العقلية والنقلية ويستخلص المسـائـل الاعتقادية من الايات بمهارة فائقة لا نكاد نصادفها في اي تفسير سبقه، ولعل هذا هو ما اراده ابن ابي الـوفاء القرشي بقوله : «انه لا يوازيه فيه كتاب ولا يدانيه شيء من تصانيف من سبقه في ذلك الفن» (42). وبالرغم من أنّ هذا الكتاب لم يصدر منه عدا الجزء الأول فحسب، فانه انار لي كثيرا من الآراء الكلامية الماتريدية كموقفه من قضية رؤية الله سبحانه، ومعنى الاسلام، وإشارات حول الفطرة... (43) وما الى ذلك من القضايا الهامة التي أثارها في ثنايا تفسيره.

والباحث في شؤون الماتريدي ينبغي أن لا يغفل منطلق هذه المدرسة فهي تبدأ بأبي حنيفة النعمان مؤلف كتاب «العالم والمتعلم» و«الفقه الابسط» و«رسالة الى عثمان

---

40) عبد الامير الاعسم : تاريخ ابن الريوندي الملحد، نصوص ووثائق من المصادر العربية خلال الف عام، ص 55، دار الافاق بيروت، 1975.

41) الماتريدي : تأويلات اهل السنة، ج 1، تحقيق د. ابراهيم عوضين، والسيد عوضين طبعة القاهرة 1971.

42) ابن أبي الوفاء القرشي : الجواهر المضيئة، ج 2 ص 130 ـ 131.

43) الماتريدي : تأويلات اهل السنة، ج 1 ص 80.

البتي». (44) وكتاب «الفقه الأكبر» (45) المنسوب شرحه خطأ الى الماتريدي. وقد شرحه أحناف كثيرون كعلي القاري، وأبي المنتهى (علي بن عيسى المغنيساوي) وعلى البزدوي. وهذه الكتب توضح انشغال متكلمي الإسلام بهذه القضايا منذ زمن مبكّر، وصِلتها بالواقع الإسلامي أو بُعْدَهَا عنه، كما تبيّن بوضوح تطوّر المشاكل العقدية، وما أضافه الخلف الى السلف، خاصة وقد زَكَتْ الحياة الفكرية في الإسلام ونَمَتْ بما حدث من تَرْجمات لكتب المنطق والفلسفة، ولا أدل على ذلك من تلك القضايا التي بدأ البحث فيها بشكل بسيط كقضية الايمان، وأفعال العباد والنبوة، ثم انقلب الى موسوعات علمية في هذا الشأن، وكتب أبي حنيفة أجلى مثال لذلك فهي توضح كيف شرع المسلمون في مثل هذه المباحث (46)، وبيّن كيف بدأ البحث فيها.

وأمّا المصادر الماتريدية (أنصار هذه المدرسة وأتباعها)، فيتصدّرهم أبو اليسير محمد بن محمد بن عبد الكريم البزدوي (493 هـ 1099 م) صاحب كتاب «أصول الدين»، وهذا الكتاب في حقيقته تلخيص منقح لـ «كتاب التوحيد» لأبي منصور الماتريدي.

وقد أشار البزودي الى ذلك صراحة في مقدمته للكتاب (47) وهنا تكمن أهميته إذ هو يزيل الشكوك التي تراود بعض الباحثين حول أسلوب كتاب التوحيد التأليفي الذي لا يتناسب مع أسلوب ذلك العصر. فإذا قارنت محتوى «كتاب التوحيد» بـ «أصول الدين» للبزدوي وجدت الشبه واضحا جليا في الأبواب والمسائل وعدد الصفحات.

ولقد اشتمل «أصول الدين» للبزدوي على 96 مسألة بينما اشتمل «أصول الدين» للمفكر الأشعري عبد القاهر البغدادي (ت 429 هـ) على 225 مسألة عقدية كمسألة الإيمان، وحدوث العالم، والنبوة. (48) وهناك نَسَفِيَانِ قد بلورا العقيدة الماتريدية الأول أبو المعين النسفي (508 هـ = 1114 م)، وهو يعتبر أكبر من ناصر الماتريدي وتحمّس له بقوة.، وهو منه بمنزلة الباقلاني والغزالي والشهرستاني من

44) ابو حنيفة : العالم والمتعلم تحقيق محمد زاهد الكوثري، مطبعة الانوار، القاهرة، 1368 هـ.
45) ابو حنيفة : الفقه الاكبر، طبعة حيدر اباد الدكن 1321 هـ.
46) العالم والمتعلم : ص 14 ـ والرسالة، ص 37 ـ والفقه الاكبر، ص 46.
47) البزدوي : أصول الدين، ص 3، حققه وقدم هانز بينرلنس، القاهرة، 1963.
48) البغدادي : أصول الدين، ص 153، الطبعة الثانية، بيروت 1980.

الأشعـري. وكتاباه «تبصرة الأدلة» و«بحر الكلام» بمثابة الينبوع الثاني بعد «كتاب التـوحيد» للماتريدية، وقد أثار في بحر الكلام قضايا متنوعة كمبحث الإيمان، وهل الإيمان يزيد وينقص ؟، وهل يدخل العمل في مفهومه ؟ (49).

وأمـا الثـاني فهـو أبـو حفص نجم الـدين عمـر بن محمـد بن أحمـد إبن إسـماعيل النسفي (537 هـ = 1142 م)، وله تصنيف بمثابة ملخص للعقيدة الماتريدية، به 58 مسألة عقدية، وقد اشتهر في المعاهد الاسلامية الكبرى في المغرب والمشرق بـ «العقائد النسفية». وأهمية هذا المصدر رغم صغر حجمه تتمثل في بيان تطور آراء المـاتريدية، وكيف اصطبغت بالصبغة الفلسفية وبداية هذه العقيدة توضح ذلك. يستهل النسفي بمقدمة يتكلم فيها عن العلم «حقائق الأشياء ثابتة، والعلم بها متحقق، خلافا للسوفسطائية»، وأسباب العلم للخلق ثلاثة:

1) الحواس السليمة.

2) الخبر الصادق.

3) العقل.

ثم يفسر النسفي هذه الأسس الثـلاثـة للمعرفة، وبعد تقريره لهذه الأسباب يرفض القول بأن الإلهام من أسباب المعرفة مع كون الصوفية يجعلونه الأساس الأوحد لها.

وتبتدىء بعد هذا العقائد:

الاولى: أن العالم حادث، والعالم بجميع أجزائه محدث.

والعقيدة الثـانية تتعلق باللـه «المحـدث للعالم» وصفاته الثبوتية، ثم يسرد الصفات السلبية، ثم يتحدث عن التكوين وهي الصفة الثامنة التي اضافها الماتريدي الى صفـات المعـاني وينتقـل بعـد مسـألة مرتكب الكبيرة الى الحديث عن الإيمان، والاسلام، ثم ختم بأشراط الساعة (عقيدة 56) وأن المجتهد قد يخطيء وقد يصيب (العقيدة 57).

كل هذا يدلنا على أن النسفي لم يستهن بالفلسفة، ومزج بعض مباحثها بمباحث علم الكلام بالرغم من كونه عاش مباشرة بعد الغزالي الذي شنّ عليها حملة شعواء.

---

49) ابو المعين النسفي: بحر الكلام، ص 20 ظ، مخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس عدد 9310.

وقد شرح غير واحد مُصَنَّفَهُ كمُصلح الدين بن مصطفى الكستلي (901 هـ)، وأحمد ابن موسى الخيالي (ت860 هـ)، ورمضان البهشتي (ت 979 هـ) وأحسن هذه الشروح «شرح سعد الدين التفتازاني» (ت 791 هـ) الذي فرغ منه سنة (768 هـ). وهو تأليف دقيق وهام خاصة في ردوده الموجّهة ضدّ المذاهب غير السنية.

وإذا كان الشرح لهذه العقائد موجزا (50) فانه قد عاد وشرح هذه العقائد شرحا مفصّلا بعنوان «مجموع الحواشي البهية على شرح العقائد النسفية»، وقد أطنب في أسباب العلم، كما تحدث عن بعض مميزات المذهب الماتريدي كالتكوين (51). كما يعتبر كتاب سعد الدين النفتازاني «مقاصد في علم الكلام» موسوعة كلامية سنية ترجم فيه للماتريدي ترجمة موجزة (52) ثم تحدث عن واجب الوجود وأشار الى قضية التقليد في الإيمان، وموقف الفرق الإسلامية منها.

وممن قام بنصرة الماتريدي، ووضح آراءه نورالدين أحمد بن محمود بن أبي بكر الصابوني (ت 580 هـ = 1181 م) الذي تتلمذ على ابي المعين النسفي وقرأ عليه كتاب «تبصرة الادلة» وأعتقد أنه كتاب لا مزيد عليه في التحقيق والتدقيق.

وقد تناول في كتابه «البداية في أصول الدين» (53) العقيدة الماتريدية، ودافع عن وجهة نظر مذهبه باخلاص، حينما عظّم الخلاف بينهم وبين الاشاعرة خاصة عندما قام فخر الدين الرازي بزيارة «ما وراء النهر» وانعقدت هناك مناظرات بين فرعي أهل السنة الأشاعرة والماتريدية. يقول الرازي متحدثا عن ذلك : «لما دخلت بلاد «ما وراء النهر» وصلت اولا الى بلدة بخارى ثم سمرقند، واتفقت لي في واحدة من هذه البلاد مناظرات ومجادلات مع من كان فيها من الأفاضل والأعيان وقد كان في بخارى رجل يقال له النور الصابوني، وكان يزعم انه متكلّم القوم . .» (54) وقد وقع بينهما مناظرة حول الرؤية.

واما موضوعات المناظرات بين الرازي وبين علماء «ما وراء النهر» من الماتريدية فهي التكوين والبقاء والتكليف بما لايطاق والكلام، وهي تجسم نقاط الاختلاف بين فرعي أهل السنة.

---

50) سعد الدين التفتازاني : شرح العقائد النسفية، طبعة مكتبة المثنى بغداد.
51) سعد الدين التفتازاني : مجموع الحواشي البهية على شرح العقائد النسفية، طبعة مصر 1329 هـ.
52) سعد الدين التفتازاني : مقاصد في علم الكلام، ج 1، ص 371، استنبول 1305.
53) نور الدين الصابوني : البداية في أصول الدين، تحقيق بكر طوبال اورعلي، طبعة دمشق، 1979.
54) الرازي : المناظرات، ص 2 و7 وما بعدها، حيدرابـاد 1375 هـ.

وبالرغم من أهمية هذا المصدر إلاّ أنّ مدوّنها كان الرازي نفسه، فأبرز مناظريه في موقف الضعف والانخذال ويبرز ذلك واضحا عند قوله : «ولما وجهت هذا الكلام على ذلك الرجل الغويّ اضطرب وبقي مبهوتا ولم يجد البتة الى دفعه سبيلا، وانتهى في العيّ والسكوت الى أقصى الغايات، ثم انه قام وخرج من الدار» (55) ويقول في موضع آخر «ولما ظهر للحاضرين كمال قدرتي»، ويقول أيضا : «فلما دخلت على الشرف المسعودي أحد علماء الماتريدية (ت 582 هـ) ـ وسمع هذا الكلام، وعظم عضبه واستولت الرعدة على اعضائه. فلما سمع هذه الكلامات احمر واصفر ولم يجد الى الجواب سبيلا . . . » (56)

وقيمة الرازي ليست موضع شك بين القدامى والمحدثين، إلاّ أنّه من الواضح أن أسلوب الكتاب يطغى عليه أسلوب المناظرة، واظهار الخصم في مظهر الانخذال والضعف.

وتناول كمال الدين بن الهمام الحنفي (861 هـ 1456 م) الماتريدي في كتابه «المسايرة في العقائد المنجية في الاخرة»، توضيح كثير من المسائل العقدية التي خالف فيها الماتريدية الاشاعرة وبالرغم من أن هذا الكتاب يعد شرحا «للرسالة القدسية» للإمام الغزالي، وقد سايره ابن الهمام بشرحه له، إلاّ أنّه زاد جلاء لآراء الماتريدي، كالعلم بوجوده تعالى، والوحدانية، والتكوين وقد شرحه غير واحد من العلماء كابن أبي شريف (ت 906 هـ) وقد اختار عنوان شرحه «المسامرة بشرح المسايرة» (57)، كما شرحه القاسم بن قطلوبغا الحنفي (ت 879 هـ). وهذا الكتاب قد نال شهرة واسعة إذ كان مدرجا في البرامج الرسمية لجامع الزيتونة المعمور. ويعد كمال الدين احمد بن حسن بن سنان البياضي الرومي (ت 1082 هـ) في كتابه «إشارات المرام» من عبارات الامام» أبا منصور الماتريدي ليس بِمُبْتَكِرٍ لطريقة بل هو مفصّلٌ لمذهب أبي حنيفة وأصحابه (58) وأن الخلاف بين الاشعري والماتريدي في نحو خمسين مسألة خلاف معنوي لكنه في المسائل الفرعية التي لا يجري في خلافها التّبديعُ. ثم سرد تلك المسائل

---

55) المصدر السابق، ص 9، ص 14، ص 30، ص 33.

56) المصدر السابق

57) سأشير الى هذا المصدر هكذا : المسامرة بشرح المسايرة، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. طبعة مصر.

58) كمال الدين البياضي : اشارات المرام من عبارات الامام، تحقيق يوسف عبد الرزاق، طبعة مصر 1949.